

لولا الإسلام لما أصبحت العبيبة لغما عالمية

للواء الركن محمد شيت خطاب
عضو المجمع العلمي العربي ببغداد
وعضو اللجنة الجمعية بالرباط

- 1 -

وكانوا فقراء معدمين يسكنون الخيام في الصحراء
فأصبحوا بالإسلام أغنياء موسرين يسكنون الحواضر
على ضفاف الأنهار .

وكانوا من الناحية العسكرية لا يطعمون أن
يحموا أرضهم من الفرس والروم وحتى من الأقباش ،
فأصبحوا بالإسلام لا يطبع أحد في حماية أرضه من
قوتهم القاهرة التي ملأت الأرض ساحة ونورا وعدلا .

لقد كان للإسلام أثر أي أثر على العرب ، بدلهم
من حال إلى حال ، وجعل منهم أمة لها مكانتها ولها
اعتبارها ولها تأثيرها في سير الأحداث العالمية ولها
كلمتها المسموعة بين الأمم .

ان الإسلام هو الذي جعل من العرب قوة حضارية
وجدت لها (متنفسا) في الفتح الإسلامي العظيم .

ولو لم ترغرف رايات الفاتحين شرقا وغربا ، لما
كان للعرب المسلمين مكانة بين الأمم في النواحي
السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية ، لذلك
يمكن القول بأن أثر الإسلام عسكريا في العرب ، هو
الاساس الاول لمكانتهم السامية بين الأمم ، لان الدول
لا تحترم غير الأتوياء ، والقوي وحده هو الذي يستطيع
أن يؤثر في سير الأحداث العالمية ، سواء كان هذا
التأثير هدفة الخير للعالم كما فعل المسلمون الأولون،
أم كان هدفة الشر والخراب والدمار كما فعل جنكيوزا
خان والتاتار قديما والاستعمار بأشكاله وصوره حديثا .

كان من فضل الإسلام على العرب ، أنه وحد
صفوفهم ، ووحد كلمتهم ، وأشاع فيهم الضبط والنظام ،
وخلق فيهم انسجاما فكريا ، فأصبحوا يعملون تحت
راية عقيدة واحدة ، لتحقيق هدف واحد ، هو اعلاء
كلمة الله .

كانوا قبل الإسلام ضعفاء ، فأصبحوا بالإسلام
أقوياء ، وكانوا قبل الإسلام متفرقين ، فأصبحوا
بالإسلام موحدين ، وكانوا قبل الإسلام مشركين ،
فأصبحوا بالإسلام موحدين ، وكانوا قبل الإسلام
مستعبدين ، فأصبحوا بالإسلام فاتحين .

وكان العرب قبل الإسلام متخلفين سياسيا
 واجتماعيا واقتصاديا وعسكريا ، فرفع الإسلام مكانتهم
السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية .

كان الفرس والروم سادتهم في العراق وأرض
الشام ، وحتى الأقباش كانت لهم صولة وجولة ومكانة
في اليمن السعيد ، فأصبح العرب بالإسلام سادة
الفرس والروم والأقباش وسادة أمم أخرى لا تعد ولا
تحصى من الصين شرقا إلى قلب فرنسا غربا ، ومن
سيبيريا شمالا إلى المحيط الهندي جنوبا .

وكان العرب أمتل حضارة ومدنية من الفرس
والروم خاصة ، فأصبحوا بالإسلام قادة الحضارة
العالمية ورواد المدنية في الدنيا .

وقد انتصر العرب بالاسلام ، فكان انتصارهم انتصار عقيدة لا مراء .

وكان من بعض نتائج الفتح الاسلامي ، ان العربية أصبحت لغة عالمية .

— 2 —

ولكن القول بأن انتشار اللغة العربية بين الامم الاخرى ، كان نتيجة من نتائج الفتح لا يعني عن كل قول .

فالواقع ان القرآن الكريم ، كان له اعظم الاثر في انتشار اللغة العربية بين الامم ، فهو كتاب الاسلام الاول وكتاب العربية الاول ايضا .

نزل القرآن الكريم بالعربية : (انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (1) ، وقال تعالى : (وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا) (2) ، وقال تعالى : (قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون) (3) ، وقال تعالى : (وهذا لسان عربي مبين) (4) ، وقال تعالى : (نزل به الروح الامين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين) (5) ، وقال تعالى : (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) (6) ، وقال تعالى : (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) (7) .

وخرج العرب المسلمون الذين اختزنتهم الصحراء قرونا طويلة : القرآن الكريم في يد ، والسيف في يد أخرى ، يدعون الناس الى دينهم ويبشرونهم به ، فمن دخل فيه كان كأحداهم له ما لهم وعليه ما عليهم .

وكانت تعاليم الاسلام في القتال واضحة المعالم جازمة الاهداف : الاسلام ، أو الجزية ، أو القتال . وانتشر الاسلام بين الامم انتشارا عظيما ، ودخل الناس في دين الله أفواجا في فترة مد الفتح الاسلامي العظيم الذي ابتدا سنة إحدى عشرة الهجرية (632م) وانتهى سنة ثلاث وتسعين الهجرية (711 م) ، وكان مع قادة الفتح الاسلامي وجنوده قادة الفكر الاسلامي وجنوده : يدعون الى الله على بصيرة ، ويبشرون

- (1) الآية الكريمة في سورة يوسف (12 : 2) .
- (2) الآية الكريمة في سورة طه (20 : 112) .
- (3) الآية الكريمة في سورة الزمر (29 : 28) .
- (4) الآية الكريمة في سورة النحل (16 : 102) .
- (5) الآية الكريمة في سورة الشعراء (26 : 195) .
- (6) الآية الكريمة في سورة الرعد (12 : 27) .
- (7) الآية الكريمة في سورة فصلت (41 : 3) .

بدينه على هدى ، ويعلمون العربية لغة القرآن الكريم ، ويلقنون القرآن للناس عقيدة ولغة .

وبعد انحسار مد الفتح الاسلامي العظيم ، كان هناك مد آخر لا يقل خطورة واثرا وتأثيرا من مد الفتح الاسلامي ، هو مد الفكر الاسلامي علوما وآدابا وفنونا ، وكانت لغة الفكر الاسلامي هي العربية لغة القرآن الكريم .

كان على كل مسلم من غير العرب ، أن يتعلم العربية أو قدرا معينا منها ، ليستطيع أن يصلي ويتفهم مبادئ دينه الحنيف .

وبرز في ميدان قادة الفتح وقادة الفكر رجال من غير العرب ، جعلوا العربية لغتهم واعتزوا بها ودافعوا عنها واهتموا بأمرها — لانها لغة دينهم ولغة عقلمهم .

برز من قادة الفتح في ميدان المغرب العربي وحده أبو المهاجر دينار وموسى بن نصير وطارق بن زياد .

وبرز في ميدان قادة الفكر ما يضيق عن الحصر ، يكفي ان نذكر منهم سيبويه امام النحو والصرف والبخاري امام الحديث الشريف وأبا حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي امام الفقهاء ... الخ -

— 3 —

لقد كان للقرآن الكريم أعظم الاثر في انتشار اللغة العربية ، حتى أصبحت في العالم لغة الحضارة والمدنية قرونا طويلة .

وكان للفتح الاسلامي العظيم اعظم الاثر في انتشار اللغة العربية ، بحيث أصبحت لغة عالمية لها شأن حاسم في قيادة الحضارة العالمية .

وحين انتهى الفتح الاسلامي بعد أن بلغ مسداه وحقق اهدافه ، بقي القرآن الكريم الحارس الامين للعربية وهمزة الوصل بين الشعوب الاسلامية .

ولولا الاسلام لما تأتى للعربية أن تنتشر في العالم ، فتؤثر في كل لغات العالم تقريبا .

ولكن هذه الدعوات المريبة لن تنجح أبدا ، ما دام حارس العربية الاوحد وهو القرآن الكريم موجودا وصدق الله العظيم : (انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون) (I) .

— 5 —

في عام 1964 زرت الباكستان برفقة الرئيس المرحوم عبد السلام عارف .

وصلنا الجمعة في مسجد (كراچي) الكبير ، وكانت خطبة امام الجامع بالعربية وحدها .

وبعد انتهاء الصلاة ، سأل المرحوم الرئيس عبد السلام امام الجامع : « لماذا لا تخطب بالعربية والاوردية ليفهم السامعون من غير العرب ما تقول ؟ »

وأجاب الامام فوراً : « لا ادنس منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغة غير لغة القرآن الكريم » .

ووقتها همست في اذن الرئيس : « هل نحن قوميون أم هؤلاء ؟ » .

وأوينا الى دار الضيافة ، وجلسنا ليلاً نتحدث وكان الخدم على باب الغرفة يتطاردون بحفظ القرآن الكريم .

واستقبلنا رئيس الجامعة الاسلامية في (دكا) عاصمة باكستان الشرقية بخطاب ، كان بلغة الجاحظ لا بلغة القرن العشرين .

وكان في نية حكومة الباكستان ان تتخذ العربية الفصحى لغة رسمية ولا تزال هذه نيته حتى اليوم ، لو عاونت الحكومات العربية بصدق وأمانة وأخلاص في هذا المجال .

ان كل مسلم على وجه الارض يقدر اللغة العربية ويفضلها على لغته الاصلية ، اذا كان هذا المسلم ملتزماً بتعاليم دينه الحنيف .

ذلك لانه يعتقد ، بان العرب هم الذين نقلوه من الظلمات الى النور ، وانهم ابناء الصحابة الكرام وابناء تادة الفتح الاسلامي العظيم وجنوده ، وان النبي صلى الله عليه وسلم منهم والقرآن الكريم بلغتهم ... وهذا ما كان يردده الباكستانيون على اسماعنا من الرئيس ايوب خان حتى اصفر رجل في الباكستان .

ان لغة القرآن الكريم ، قد خالطت كل لغات الشعوب الاسلامية واثرت فيها اعظم التأثير .

والذين لا يعرفون التركية والفارسية والاوردية والبنغالية — مثلاً — يستطيعون حين يصفون السى المتكلمين بها ، ان يفهموا كثيراً من مفرداتها لانها عربية خالصة .

وليس في ذلك عجب ، لان شعوب تلك اللغات بعد اسلامها ، اقتبست من لغة القرآن الكريم الذي نتلوه صباح مساء كثيراً من المفردات العربية الفصيحة .

ولكن العجب ان تغزو لغة القرآن شعوباً غير مسلمة ، فتجد في اللغة الانكليزية والفرنسية والالمانية ... الخ ... كثيراً من المفردات العربية .

والاعجب من ذلك ان يؤلف مستشرق روسي حديث معجبا عن : اللغة العربية في اللغة الروسية !!

لقد أصبحت العربية بعد الاسلام وبالإسلام لغة حضارة ، غمرت بأنوارها الدنيا وغطت كل اللغات في العالم تقريباً .

وكانت جامعات بغداد ودمشق والقاهرة وتونس والمغرب والاندلس ، هي الجامعات المعتدة في العالم كله .

وكان طلاب العلم والمعرفة يقصدون هذه الجامعات من شتى انحاء العالم .

وقد كان من خريجي جامعات الاندلس بعض الذين أصبحوا بابوات في روما .

فلما ضعف العرب ضعفت العربية ، فليس الضعف في العربية ولكن الضعف في العرب انفسهم .

ولقد بذل الاستعمار القديم والحديث تصارى جهده لترسيخ اقدام الاستعمار الفكري في عقول العرب ونفوسهم ، فشكك في مقدرة اللغة العربية وفي طاقاتها وبث اراجيفه دعوة للعامة ومطالبة بكتابة العربية بحروف لاتينية .

وهذه الدعوات مريبة دون أدنى شك ، هدفها جعل الشعب العربي شعوباً وجعل القرآن الكريم غير مفهوم المعاني والمباني الا للذين يدرسون العربية الفصحى .

(I) الآية الكريمة في سورة الحجر (15 : 9)

أعرف أنها مسلمة ، فأردت أن أكافئها بهدية نقدية جزاء خدماتها ، ولكنها قالت لي : « لا أريد إلا أن تكتب لي بالعربية جملة : بسم الله الرحمن الرحيم ، لأخذها هدية ثمينة أقدمها لوالدتي المريضة في الصين » .

ولما كتبت لها هذه الجملة المباركة ، طسوت الورقة باعتناء واهتمام شديدين ، ثم قبلتها ووضعتها على صدرها بكل اجلال واحترام .. !

ترى ! هل يدرك العرب اليوم ، أهمية التمسك بالاسلام، والدعوة الى التمسك به لحاضرهم ومستقبلهم ولمصيرهم ؟ !

انهم بذلك يخدمون انفسهم قبل غيرهم ، ولكن باليت قومي يعلمون !!

لقد رايت بعيني رجلا باكستانيا اراد أن يتلمس احدنا بيده فلم يستطع لشدة الازدحام ، فما كان منه الا أن لوح بيديه في الهواء نحونا من بعيد ثم لامس بيديه قلبه ووجهه لتثاله (البركة) من العرب .

والمسلمون غير المتزمين بدينهم ، يعادون أول ما يعادون القرآن الكريم لغة وعتيدة ، وشواهد التاريخ الحديث كثيرة لا تعد ولا تحصى .

ان بين الالتزام بالدين الحنيف ، علاقة وثيقة بتبني اللغة العربية وانشارها ، ما في ذلك ريب .

ولست أنسى يوم كنت مسافرا على متن طائرة صينية شيوعية عام 1964 ، فلمست من المضيئة نهاية خاصة بي حين عرفت أنني عربي مسلم . ولم أكن

ورد علينا من الاستاذ كامل باقر الموسوي من الكوفة بالعراق جواب نقنظف منه ما يلي :

اللغة العربية موطنها الاصلي هو الجزيرة العربية وتعني اللغة المتداولة من العصر الجاهلي حتى يومنا هذا أي اللغة العربية الشمالية (المصرية) حيث أن اللغة الجنوبية (القحطانية أو الحميرية) قد انقرضت تماما عندما انفصلت عنها أختها الشمالية وهي لغة الحجاز والبحرين واليمامة ونجد، ولم يبق منها الا آثارها المنقوشة على خرائب اليمن ودولها القديمة في حمين وسبأ وحمير فكانت النقوش بالخط المسند وهي أبجدية مختلفة كل الاختلاف عما هو في لغة مضر التي منها لغة القرآن الكريم .

ومن المعلوم أن اللغة العربية قد اقتبست كلمات أعجبية أصبح بعضها وكأنه عربي خالص ومن هذه الالفاظ ، قرطاس ، درهم ، دينار ، سجل ، كرسي ، برنس ... الخ وقد دخلت بعض هذه الكلمات في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم كذلك والمعروف أن انتشار اية لغة يتم عن طريق التدوين أو تبادل الرسائل وما الى ذلك ، وكل هذا لانعمره عن العرب قبل الاسلام سوى ما نقرأه عن الشعراء الجاهليين وكان من بين

هؤلاء من ينتقل خارج الجزيرة العربية الى العراق والشام خاصة اما لاغراضه الشخصية أو لغيرها مثل الاعشى وامرؤ القيس وكان في العراق قبائل عربية عرفت بالمانثرة بعد تأسيسهم دولة بهذا الاسم وجعلوا الحيرة عاصمة لهم وكانت في الشام دولة الفساسنة ولكن الغالب أن لغة هؤلاء ليست العربية كما ظهر ذلك في نقوش آثارهم فكانت تكتب بالارامية بعكس المانثرة فان جلهم من العرب كما فصل ذلك الاستاذ جرجي زيدان في كتابه « العرب قبل الاسلام » ، فاللغة العربية كانت محصورة اذن في الجزيرة العربية وما حولها واستمر هذا الحال حتى القرن السادس الميلادي تقريبا ثم جاء الاسلام وأخذ الرسول (ص) يدعو الى الدين الجديد داخل الجزيرة في أول الامر وكان القرآن الكريم هو دستوره فانتشر في عهد الخلفاء الراشدين بواسطة الفتوحات الاسلامية واتسعت رقعة نفوذه أكثر في مصر الامويين والعباسيين حتى بلغ حدود الصين شرقا والاندلس غربا .

وبما أن لغة هذا القرآن هي العربية وان المسلمين ملزمون بقراءته فقد أصبح التلازم واضحا في الاسلام واللغة العربية .